الغرفة الزرقاء

للكاتب الفرنسي بروسبير ميريميه

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

أخذ الفتى يذرع فناء المحطة مقبلا مدبراً تبدو عليه سمات الاضطراب والقلق، وهو يجهد أن يخفى معالم وجهه ، فهو قد أرخى طرف قبعته على جبهته، ووضع نظارة زرقاء على عينيه ، ولف حول عنقه منديلا كبيراً ، وفى يمناه منديل يرفعه إلى أنفه بين الحين والحين ، وقد حمل فى يسراه حقيبة صغيرة فيها بعض متاعه ... وهو ينطلق إلى باب المحطة بين الفينة والفينة يستطلع خبراً ، ثم ينقلب فى لهفة يحدق فى الساعة الكبرى ... لم يكن القطار ليبرح إلا بعد ساعة ، ولكنه كان يخشى أمراً .

وابتدأ السفر يفد زمراً زمراً والفتى يفزع لمرآهم ويحس كأن قلبه ينخلع ؛ ثم هو يشعر بالرعدة تسرى فى مفاصله ، والكلال يسيطر عليه، فرقاً وخوفاً

وانتظر فطال به الانتظار ... ثم طلعت عليه فتاة فى لباس أسود ونقاب أسود كثيف يغطى معارفها ، وخطواتها تبدى عن بعض جمالها وشبابها وفى يمناها حقيبة من الجلد صغيرة . وتلاقيا ... ولبثا حيناً صامتين ، يداً فى يد ، وعليهما أثر الإعياء والبهر ؛ ثم اندفعت الفتاة تحدثه : « ليو ! ما كنت لأستطيع أن أثبتك وأنت فى نظارتك هذه ! » قال ليو : « وأنا ، لقد كدت أنكرك وهذا النقاب يحجبك عنى! » فقالت الفتاة: « لا ضير، فلنتخذ مكاناً هادئاً فى القطار قبل أن يتدفق إليه الناس . » ثم جذبته وهى تقول: « إن واحداً لا يستطيع أن يتعرفنا الآن . أنا الآن مع كلارا وزوجها فى طريقنا إلى الريف — كما يظن الجميع — وسأعود عند ظهر الغد ؛ أفهمت ؟ إنه لن يتطرق الينا الشك أبداً ، ثم ... ثم إذا سئلنا عن أسمائنا فى الفندق ؟ » قال الفتى : « السيد دورو والسيدة زوجه » قالت : « لا ، لا ! لقد كان هذا اسم حذاء هناك ! » قال : « السيد ديموند والسيدة زوجه » قالت : « لا بأس، لا بأس : »

ودق الجرس ، بعد أن أصابا مكاناً خالياً كأنما كان مهيأ لهما بخاصة ، فصاحا معاً « إننا الآن فى خلوة : » غير أن السرور الذى أفعم قلبيهما حين وجدا نفسيهما وحيدين لم يستقر إلا ريثما يفزعه رجل فى الخمسين من سنى عمره فى ملابس سوداء قاتمة تبدو عليه سمات الحزن والجد وأثر النعمة وهو يدلف إليهما فى هدوء ، ويأوى بنفسه فى زاوية بإزائهما.. وانطلق القطار . وانتحى الشاب وصاحبته ناحية ثم راحا يتهامسان باللغة الإنجليزية فى حذر . فنظر إليهما الرجل برهة ثم قال فى لسان إنجليزى فصيح: « سيدى ، إن كان لديك من الحديث ما تشفق أن أسمعه فلا تقله بالانجليزية لأننى إنجليزى النشأة والمربى ؛ ولشد ما يؤلمنى أن أزعجك أو أقطع عليك حديثك ، ولكن بالرغم منى ما فعلت ، فى العربة

الأخرى رجل يضيق بمرآه صدرى لأننى أستشعر فيه اليهودية ، ثم إنى قد وطنت نفسى على ألا أسافر مع رجل واحد في عربة واحدة ! » ثم توسد حقيبته وهو يقول: « سأنام ، وإن لم أستطع فسأقرأ »

وحاول الرجل عبثاً أن ينام ، فأخذ يفتش عن كتاب في حقيبته ، وحين فتحها بدا ما فيها من تشعث واضطراب ؛ وأعجز الرجل أن يجد كتابه ونظارته دون أن يلقى ببعض ما فى الحقيبة جانباً ؛ ثم تناول من بين متاعه حزمة ضخمة من الأوراق المالية الإنجليزية وهزها أمام الشاب وهو يقول : « أفأستطيع أن أستبدل بهذه ورقاً فرنسياً فى (ن ...) ؟ » قال الشاب : « قد تستطيع ، فهذه قرية فى الطريق إلى انجلترا ! »

واضطرب الشاب لأنه هو سيهبط هذه القرية فى صحبة فتاته ليختلسا من الدهر فترة نعيم يتذوقان فيها لذة الهوى المحض ، ويرشفان من رحيق الحياة قطرة صافية حلوة ، ثم لا تمتد يده إلى الثمرة المحرمة ؛ ثم هو أوجس فى نفسه خيفة من هذا الرجل الغريب فما فى (ن ...) سوى فندق واحد صغير . لقد اختلف ليو إلى هذه القرية مرات ومرات وأعجبه ما فيها من جمال وهدوء ، وجذبه إليها ما رأى من روعة وجلال ، فانطلق إليها هو وفتاته يستمتعان بجمال الطبيعة وسعادة الحب . والآن ... الآن حين صحبهما هذا الرفيق الثقيل اضطرب الشاب وفزع وسلبته خواطره بعض ما يستشعر فى نفسه من لذة وطرب ...

ما يزال القطار فى طريقه والرجل الانجليزى منكب على كتابه ، وقد شغله عن كل ما حوله ، والحبيبان يتحدثان حديث القلب فى صوت خافت كأنه لغة الهوى الصامتة . وفى الحق لقد سعى الفتى جهده زماناً ليظفر بالتى أحب ، غير أن عوائق جمة حالت بينه وبين أن يكون زوجاً لها

وبلغ القطار (ن ...) فقفز الرجل الانجليزى مسرعاً إلى الرصيف وخلف ليو يساعد فتاته . ووثب فتى انجليزى من العربة الثانية واشتد فى إثر الرجل الانجليزى وهو يناديه : « أى عمى ، أى عمى ! » فأجابه الرجل في قسوة وغلظة : « دعنى وحيداً ! » فصاح به الشاب : « لا تبذر فىّ غراس اليأس ! » فالتفت إليه العم ثم ألقى بحقيبته عند قدمى ليو وهو يقول : « أرجو أن تحفظ متاعى ! » ثم سحب الشاب إليه بجره إلى ناحيته ، وانطلق يحدثه فى رفق ثم ناوله بعض الأوراق المالية فاندفع الشاب لا يلوى على شىء ...

* * *

وتلاقى الجميع — بعد حين — فى فندق القرية ، وحيا صاحب الفندق ليو وصاحبته بخير الغرفات عطفاً منه على الفتاة — عادة تعودها الفرنسيون فما يحيدون عنها ، تنبئ عن بعض ما فيهم من أدب وظرف — ودخلا معاً الغرفة الزرقاء ، وقد لصق بها هذا الاسم منذ سنوات وسنوات لأن كرسيين كبيرين على جانبى المدفأة قد كسيا بالمخمل الأزرق ... ودخلا الغرفة فألفيا فيها — سوى الكرسيين — سريراً من خشب الجوز ، وستائر من قماش ذى ألوان جميلة ، ووجدا جدران الغرفة مغطاة بورق جميل زين برسوم مختلفة وصور أنيقة ، امتدت إليها أيدى النزلاء بالعبث حيناً وبالتشويه حيناً آخر ، فطمست كثيراً من روائها وبهجتها

وحامت خادمات الفندق حول الفتاة ، يبذلن

جهدهن فى إرضائها والعناية بها ، وليو فى المطهى يطلب العشاء . وترامى إلى مسمعيه أن فرسان الفرقة الثالثة سيتناولون غداءهم فى حجرة الطعام الكبرى فارتاع واشتد به الأسى إذ يعلم أنهم لن يخففوا من هرجهم وضجيجهم حتى نصف الليل ، وصاحب الفندق يهدئ من روعه ويقسم أنهم على جانب من الأدب والحياء ...

وراع الفتى أن يجد حجرته بين حجرة الطعام الكبرى وحجرة الرجل الانجليزي الذى أفزعه مرآه منذ حين ... ثم رأى الانجليزي يتحسى الخمر ويحدق فى سماء الحجرة فى صمت وذهول . ستلعب الخمر برءوس الجند من ناحية ، وستعبث بلب الرجل من ناحية أخرى ، وهو بينهما لايطمئن ولا يهدأ . واضطربت الأفكار فى رأسه وتبلبل خاطره حين رأى فى حجرته أبواباً ثلاثة : واحداً بينه وبين المطعم ، والثانى بينه وبين حجرة الرجل الانجليزى ، والثالث إلى الممشى . ماذا يفعل وقد قذفت به يد القدر إلى حيث لايستقر وهو يريد الخلوة والهدوء؟ لقد أوثق رتاج بابين وجلس إلى فتاته ...

واستشعر الفتى اللذة والسعادة وهو إلى جانب فتاته يناجيها ويبثها بعض ما يختلج في فؤاده فى غير حذر ولا خوف . أفيستطيع الفتى أن يقول لنفسه : « أنا سعيد الآن : » وإذا قالها ، أفيرى مايضمره له الغيب وقد نظر إليهما الشيطان اللعين بعينين فيهما السخرية والهزؤ ، وهما يتناولان طعامهما فى دعة وطمأنينة ، ومن حولهما صخب الجند ولجبهم ؟ ويل للانسان من الشيطان : فهو دائماً يمزج رحيق السعادة بصاب الأسى والألم !

وأراد الشاب أن يجد لفتاته الراحة والهدوء فانطلق إلى صاحب الفندق يوحى إليه بأمر ، وانطلق هذا إلى الجند يتلطف فى الحديث ويطلب إليهم أن ينزعوا عنهم بعض ضجيجهم لأن عروساً مريضة تسكن الحجرة المجاورة ؛ ودوت الأصوات فى أرجاء المكان : « يجب أن تأتى لتشرب نخب صحتها ! » لشد ما أزعج ليو أن يسمع أصواتهم المنكرة تعلو طالبة أمراً . وتراءى له أنهم سيندفعون فى غير هوادة ولا لين يستلبونه من فتاته وهو وحده لايستطيع أن يكسر شرتهم ولا أن يغلبهم على أمرهم ... ولكن صوتاً أجش ارتفع من أقصى المكان يأمر الجميع بالصمت في صرامة وشدة ، فأطاعوا ، واطمأن ليو وصاحبته وراحا يتحدثان حديث الهوى

* * *

وأخذ الجند يتصدعون — عند نصف الليل — وهم يصيحون لدى باب الغرفة الزرقاء : « عمى مساء أيتها العروس الجميلة ! » وخرج على أثرهم الرجل الانجليزى ينادى : « زجاجة أخرى ، أيها النادل ! » ثم ألقى السكون سجوفه على الفندق ، فأطل ليو وصاحبته من النافذة يستمتعان بالليل الهادىء الجميل ويستروحان نسماته الندية ، وأبصارهما شاخصة إلى أشعة القمر المنبثة بين أشجار الحديقة تكسبها رونقاً وبهاء ... وخيل إلى ليو أنه يرى ابن أخ الرجل الانجليزى يضرب فى أنحاء الحديقة حين رأى رجلاً يسير الهوينى مطرق الرأس يدخن سيجارة فى هدوء ثم ارتدا يريدان النوم ...

* * *

وجلسا يتحدثان والشمعة بإزائهما على المدفأة يضطرب ضوءها ويخبو رويداً رويداً ، ثم جذبهما

عن أخيلتهما أن سمعا كأن جسما ثقيلا ينهد في حجرة الرجل الانجليزى ، وكأن النضد ينقلب ... ثم سمعا آهة عميقة وأنيناً ووعيداً . وسيطر الفزع على الحبيبين ، ولكن الفتى راح يخفف عن فتاته بعض ما أخافها قائلا : « لعل هذا الانجليزى يحلم ! » غير أن الهلع كاد يعصف بما بقى فيه من شجاعة حين خيل إليه أن باب حجرة الرجل الانجليزى يصر صريراً خافتاً ، وأن رجلا يتسلل فى حذر خشية أن يشعر به أحد ، فهمس فى أذن صاحبته : « ما هذا الفندق ؟ » قالت الفتاة فى هدوء : « آه ، إنه كالفردوس » ثم ألقت برأسها على كتفه وهى تقول : « آه ، إن النعاس يغالبني فلا أستطيع دفعه ! » ثم راحت فى سبات عميق ...

واستولى على ليو الأرق ، وفى خياله الرجل الانجليزى ملقى على الأرض وأوداجه تشخب دماً ، وابن أخيه يقذف بالسكين إلى جانبه ثم يفر هارباً .. واستقرت الفكرة فى خاطره فما يستطيع دفعها ..

وكأن الشاب الانجليزى تسلق الجدار إلى حيث عمه ليسفك دمه ويستلب ماله ، ثم يتسلل فى هدأة الليل وسكونه ! يالشناعة الاثم ، ويالجرأة الأثيم !

وتناهبت الفتى الأفكار السود فأقضت مضجعه وسلبته طمأنينته وهو إلى جانب فتاته النائمة . لقد أراد أن يتذوق حلاوة الرضا ، وأن يرى نور السعادة التي افتقدها دهراً من عمره ؛ غير أن القدر شاء أن يقضى ليلته قلقاً ما يستقر ولا يهدأ ... وتعلق بصره بالباب الذى بينه وبين الرجل الانجليزى فراعه أن يرى سائلا أحمر يتسرب فى بطء من فرجة فى أسفل الباب ، وأن يرى شظية ينعكس عليها ضوء الشمعة فتبدو لامعة وهاجة وسط هذا السائل ؛ فدق قلبه دقات عنيفة ، وأراد أن يبرح مكانه ليرى ... ولكنه لا يستطيع أن يفزع فتاته وهى قد ألقت برأسها على كتفه

* * *

لقد هم ليو أن يندفع إلى حجرة الرجل الانجليزي حين سمع الصوت لأول مرة ، ثم جبن خشية أن يصبح فريسة لجنون القاتل ، ثم رفع يده يريد أن يضغط على الجرس ينبه صاحب الفندق إلى الخطر ، غير أنه سحبها فى رفق حين تراءى له أنه سيزج بنفسه وبفتاته بين أيدي الشرطة والنيابة و .. والمحكمة يسألونه : من أنت ومن تكون هذه الفتاة ؟ ويلحون فى السؤال ... فتكون الفضيحة . وماذا يضيره إن هو أغضى ليبقى على نفسه وعلى فتاته ؟

وتعلقت عينا الفتى بالشظية والسائل الأحمر ، وذهل عن نفسه حيناً ثم بدت أول ساعة من النهار مخيفة مروّعة فيها الفضيحة والعار . ثم أضاء له بصيص من نور الأمل ، فقال لنفسه يحدثها : « لابد أن نبرح عند الفجر قبل أن يُكشف عن الأمر » واطمأن إلى الفكرة ثم أخذ يبحث عن ميعاد أول قطار يغادر (ن ...) فى الصباح الباكر ، فأفزعه أن يكون أول قطار هو قطار الساعة الثامنة صباحا . أفيطمئن هو إلى أن واحداً لن يدخل حجرة الرجل الانجليزى قبل الثامنة ؟

وأراد أن يبتعد قليلاً عن فتاته لينشر الأمر أمام عينيه فى خلوة أو شبه خلوة ، فسحب ذراعه فى رفق ولكن الفتاة استيقظت . وارتاعت أن وجدت صاحبها يرتجف وقد جمد الدم فى عروقه ، وبردت أطرافه ، فقالت وهى تضمه إليها فى شغف : « ماذا ، ماذا كان ؟ » قال فى صوت خافت مضطرب

« لاشيء ، غير أني سمعت هزة عنيفة في الحجرة المجاورة ! » ثم سحب نفسه من بين ذراعيها في رفق ليضع كرسياً بإزاء الباب يخفي به السائل والشظية عن عيني الفتاة ؛ ثم فتح الباب في رفق يرقب الممشى وباب حجرة الرجل الانجليزي في حذر ، ثم طنّ في مسمعيه صوت خطوات ثقيلة متزنة تنبيء عن جندي يرقى درج السلم ، فارتد يحدث فتاته حديث خياله ...

مايزال الخطر جاثماً على خطوات منهما ... ! واستخرطت الفتاة في البكاء تذرف الدمع أسى وحسرة على ماخبأ لها القدر في ليلة أرادا أن يقضياها عند محراب الهوى ينعمان بهمس القلب ووسوسة القُبل في منأى عن الواشي والرقيب ، ويتشقان فيها نسمات السعادة وقد ضنت عليهما بها الأيام حيناً من الدهر . إن بينهما وبين السجن الساعات القليلة الباقية من الليل فهما في عيني القانون مذنبان يتضرّجان بحمأة الجريمة ؛ وراح كل واحد يودع صاحبه وداعاً حاراً وقلبه يتفطر لوعة ، وكبده ينشق عن يأس وكمد ، وهما ينتظران النهاية ... النهاية الأليمة

وانتفضا معاً من شدة الذعر حين سمعا خطوات أول إنسان يجتاز الممشى . لقد ابتدأ الناس يهبون من مراقدهم عند السادسة ... كيف يجلسان هنا ... في هذه الحجرة طول هذه المدة ... ! إن القطار لايصل إلا عند الثامنة ! ها هم أولاء الخدم ترن ضحكاتهم في ردهة الفندق ، والخادمات يغنين ، والجند يروحون ويجيئون يصفرون صفيراً أنغامه متضاربة . إن هذه الأصوات تصك آذان الرفيقين فتنفث فيهما روح الأسى واليأس كأنها تشيعهما إلى النهاية ... وألح الفتى على صاحبته أن تتناول قدحاً من القهوة واللبن فامتنعت عليه لأن الخوف كان قد سلبها كل ما تشتهي النفس

وهبط ليو إلى الطابق الأسفل في نظارته الزرقاء وإلى جانبه فتاته في نقابها الأسود ؛ ثم انطلقا معاً إلى صاحب الفندق ليدفعا إليه أجر الغرفة ثم يسرعا إلى المحطة . وراح صاحب الفندق يحدث الشاب حديث الجند وحديث الرجل الانجليزي ، فأطنب وأفاض ، وليو يتحامل على نفسه من أثر الإعياء والجهد ، والفتاة من خلفه تكاد تسقط من شدة التعب والأين ؛ ورأى صاحب الفندق مايبدو على وجه الفتى من شحوب فقال : استريحا في الوقت متسع . إن القطار لايصل قبل الثامنة ، وكثيراً مايتأخر ! » فجلسا وبودهما لو طارا إلى المحطة فراراً من المصيبة التي تنتظرهما في الطابق الأعلى

وفي هذه اللحظة دخلت الخادم وهي تنادي : « هات ماء ساخناً لشاي الرجل الانجليزي وقطعة من الاسفنج أيضاً لأنه حطم زجاجة الخمر فلوثت أرض الغرفة وملأتها ريحاً خبيثة ! »

واهتزت الشابة طرباً ، وابتسم الشاب ، وتبادلا نظرات فيها الدهشة والذهول ، وكتما بين شفتيهما ضحكات تكاد تنفجر قوية عاصفة ، ثم أمسك الفتى بذراع صاحبته وانطلقا معاً إلى الغرفة الزرقاء وهو يقول لصاحب الفندق : « لن نسافر قبل الثانية بعد الظهر ، هيّ لنا غداء شهياً نتناوله في غرفتنا »

كامل محمود حبيب